الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة» :

اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه أنَّ الحنيفيةَ مِلَّةَ إبراهيمَ أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، **ومعنى** ﴿يَعْبُدُونِ﴾ **يوحِّدونِ، وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] .

****

فهذه الرسالة الثالثة من الرسائل القيمة التي صُدِّرت بها الأصول الثلاثة ، وبدأها المصنف رحمه الله تعالى بهذه الدعوة؛ بقوله : ((**اعلَمْ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه**)) ، وعرفنا أن هذا من نصحه رحمه الله ؛ حيث كان حريصاً على بيان الخير وإيضاحه ، وفي الوقت نفسه حريصًا على الدعاء للناس بالرحمة والخير والمغفرة والرشاد والسداد ، فكثيراً ما يأتي في رسائله رحمه الله عموم الدعاء للناس لمن يبصَّرون ويرشَدون ويوجَّهون ، يدعو لهم بمثل هذه الدعوات الدالة على نصحه وحرصه رحمه الله تعالى .

قال : ((**أنَّ الحنيفيةَ مِلَّةَ إبراهيم**)) ؛ هذا عنوان هذه الرسالة وبيانٌ لمفادها وفحواها ، فهي رسالةٌ مختصرة قصد بها رحمه الله تعالى أن يبين الحنيفية التي هي ملة إبراهيم ، والله جل وعلا قد وصف نبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام بأنه كان حنيفاً ، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠] ؛ نعته بهذه النعوت ومن بينها أنه عليه السلام كان حنيفاً ، ومعنى «حنيفاً» : أي مائلاً إلى حب الله وتوحيده وإخلاص الدين له والإقبال عليه ذلاً ورجاء ورغباً ورهباً ، بعيداً عن الشرك مجانباً له. إذ الحنيف أصل معناه : المائل ، والحنف : الميل ، ومعنى كونه عليه صلوات الله وسلامه عليه حنيفاً : أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن المعصية إلى الطاعة ، فكان شأنه عليه الصلاة والسلام هو هذا كما نعته بذلك ربه . ثم بعد هذه الآية بآيات قال الله عز وجل مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي أيها النبي ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣] ؛ فأمره جل وعلا أن يتبع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة وهي الإخلاص لله

تبارك وتعالى وإفراده بالعبادة والبراءة من الشرك -كما سيأتي بيان ذلك وإيضاحه- ، وقال الله جل وعلا في موضع آخر من القرآن : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[البقرة:١٣٠] ؛ أي أن هذه الملة الحنيفية السمحة -ملة إبراهيم- لا يرغب عنها أي لا يعدل عنها ويتركها ويذهب إلى غيرها من الملل والنِّحل إلا من حكم على نفسه بالسفه والغي .

قال : ((**أنَّ الحنيفيةَ مِلَّةَ إبراهيم**)) ؛«مِلَّةَ» بدل من الحنيفية ، والخبر -خبر أن- هو قوله رحمه الله: ((**أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين**)) ؛ فالحنيفية التي هي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام هي أن تعبد الله مخلصاً له الدين، هذه هي الحنيفية . لو قال قائل : ما الحنيفية ملة إبراهيم التي أُمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعها وأمِرت أمته بذلك ؟ الجواب : الحنيفية ملة إبراهيم هي: أن تعبد الله مخلصاً له الدين ؛ هذه هي الحنيفية أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، أن تصرف العبادة كلها بجميع أنواعها لله وحده ، ولا تجعل معه تبارك وتعالى شريكاً في شيء منها .

قال : ((**أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين**)) ؛ العبادة هي غاية الذل مع غاية الحب والخضوع ، وهي حق لله تبارك وتعالى ، ليس لأحد شركة في شيء من ذلك ، فهذا التذلل والخضوع والمحبة والانكسار ونحو ذلك من العبودية هذا كله حق لله جل وعلا لا شركة لأحد فيه ، وسيأتي ذكر الدليل على ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال : ((**أنْ تعبدَ اللهَ مخلصًا له الدِّين**)) ؛ أنْ تعبدَ اللهَ: أي أن تفرده وتوحده بالعبادة ، وسيأتي معنا أن الأمر بالعبادة في القرآن والسنة أمرٌ بالتوحيد ، فمعنى أن تعبد الله : أي أن تفرده تبارك وتعالى بالعبادة فلا تجعل معه شريكاً في شيء منها . ولكي يحقق المرء ذلك لابد أن يعرف العبادة ما حقيقتها؟ ليجعلها كلها لله خالصة، والعبادة أجمع ما قيل في معناها وبيان حقيقتها: أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . وبهذا يُعلم أن من العبادة ما يكون بالقلب مثل : الرجاء والمحبة والخوف والتوكل والاستعانة ، ومنها ما يكون باللسان مثل : الذكر والدعاء وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذه كلها عبادات، ومنها ما يكون بالجوارح مثل: الصلاة والصيام والحج والبر ونحو ذلك من الأمور التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بها ويحبها منهم ويرضاها . فالعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال:((**مخلصًا له الدِّين**))؛ أي أن تقع منك العبادة خالصةً لله كما قال الله تعالى:﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣] وكما قال جل وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] . فقوله رحمه الله: «**مخلصًا له الدِّين**» أي أن تأتي بالعبادة صافية نقية ، لأن الخالص هو الصافي النقي . ومعنى أن تكون العبادة خالصةً : أي أن تكون صافية نقية ليس فيها شائبة شرك أو رياء أو سمعة أو إرادة للدنيا بالعمل بل هي صافية نقية لم يُرد بها إلا الله جل وعلا .

والخالص في اللغة: هو الصافي النقي ، واقرأوا في معرفة معنى الخالص لغةً قول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل -سورة النعم- : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[النحل:٦٦] ؛ فهذه تبين لك معنى الخالص لغة . الخالص لغة : الصافي النقي ، وانظر في معرفة مدلول هذه اللفظة لغةً إلى اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام ؛ فقد وصفه الله بأنه يخرج من بين فرث ودم، حتى إن بعض أهل الخبرة يقولون إن خروجه من بين الفرث والدم هو وقت الحلب ، يعني يخرج لتوّه من بين الفرث والدم ، والدم معروف ، والفرث أيضاً معروف ، والحليب أو اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام يخرج حين يخرج من بين فرث ودم لكنك ماذا تراه ؟ هل ترى فيه قطرة دم؟ ولون الدم معروف والحليب لونه معروف ، هل ترى فيه قطرة دم ؟ أو ترى فيه قطعة من فرث ؟ الجواب : لا ، الجواب : تراه صافياً نقياً ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿خَالِصًا﴾ أي صافياً نقياً ، مع أنه خرج للتو من بين فرث ودم لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث!! وهذه آية من آيات الله وعبرة من العبر ، ولهذا صدر الله سبحانه الآية بقوله : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ، ومن العبرة والعظة في الأنعام هذه الآية من آيات الله؛ أن يخرج اللبن من بين الفرث والدم خالصاً . ثم ماذا؟ قال: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ؛ أي مع علم الناس بمصدره ومخرجه ومنبعه فإنهم يستسيغونه ، لا تنفر نفوسهم منه لكونه خرج من هذا المكان بل يستسيغونه ويستلذونه ويجدون له طعماً لذيذاً هنيئاً؛ ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لمن يشربه .

فهذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى ، وهذه الآية تبين لنا معنى الخالص لغةً ؛ أي الصافي النقي .

فإذاً قول ربنا جل وعز : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] وقوله جل وعز : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣] ما معنى الخالص ؟ عرفنا معنى الخالص ومدلولها ؛ الخالص : أي الصافي النقي ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي له الدين الصافي النقي ؛ بمعنى أن تُقبِل بكليتك وبقلبك وبنيَّتك وبقصدك وحبك ورجائك وذُلّك تقبِل على الله وحده ، لا تجعل مع الله شريكاً في ذلك ، لأنك إن جعلت مع الله شريكاً في ذلك أخللت بالإخلاص ، لم تكن عبادتك صافية ، إن دعا أحد الله ودعا معه غيره خدش دعاؤه لغير الله مع الله بإخلاصه ، لم يصبح مخلصاً بل أصبح مشركاً ، لأن المخلص: هو الذي يأتي بالعبادة صافية نقية لله وحده لا يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً فيها ، والمشرك: هو الذي يجعل مع الله شريكاً في العبادة ؛ لأن الشرك: هو تسوية غير الله بالله وجعْل غير الله نداً لله وعِدلاً له تبارك وتعالى يُصرف له من الحقوق ما يُصرف لله تبارك وتعالى .

فإذاً قوله رحمه الله : ((**مخلصًا له الدِّين**)) أي أن يكون دينك وعبادتك وطاعتك وذُلّك وخضوعك كل ذلكم يكون خالصاً لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ

أُمِرْتُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] أي أمرت بالإخلاص ؛ أن تكون هذه الأعمال كلها لله تبارك وتعالى خالصة ليس لأحد فيها مع الله سبحانه وتعالى مشاركة .

قال : ((**مخلصًا له الدِّين وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس**)) مر معنا الآية قال: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ فالله سبحانه وتعالى أمر جميع الناس بذلك ، وقال في أول أمرٍ ورد في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] فهذا أول أمر في القرآن ، وأول نهي في القرآن هو قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]؛ فأول أمرٍ في القرآن أمر بالعبادة والتوحيد والإخلاص ، وأول نهيٍ في القرآن نهي عن الشرك والتنديد واتخاذ الشركاء مع الله سبحانه وتعالى .

قال : ((**وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس**)) ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ .

((**وخلَقهم لها**)) ؛ أي لهذه الغاية خلقهم وأوجدهم ؛ فهو تبارك وتعالى خلقهم وأوجدهم لحكمة عظيمة وغاية نبيلة وهدف جليل وهو أن يعبدوا الله سبحانه وتعالى مخلصين له الدين .

((**والدليل على ذلك قول الله سبحانه** في سورة الذاريات : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾)) أي إلا لغاية وهي عبادتي ، ومعنى ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون ، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «**كل أمرٍ بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد**» . فقوله ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي وحدوا ربكم بالعبادة فأخلصوها له ، قوله : ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون ؛ أي إلا ليفردوني وحدي بالعبادة ويخلصوا الدين لي دون شريك.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أخبر جل وعلا في هذه الآية أنه تفرد بالخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ تفرد جل وعلا بالخلق والإيجاد والإنعام ، أخبر أنه تفرد بذلك وأوجد الإنسان وخلقه أوجد الثقلين ، وحدد الغاية التي لأجلها خلقهم ؛ قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فأخبر تعالى أنه فعل الأول وهو الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ﴾ ليفعلوا هم الثاني وهو العبادة ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ؛ أي إلا ليقوموا بعبادتي وتوحيدي .

فماذا كان حالهم مع هذا الذي خلقهم الله لأجله وأوجدهم لتحقيقه؟ انقسموا إلى فريقين: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦] ؛ فمنهم من هدى الله فقام بهذه الغاية ووحد الله وأفرده تبارك وتعالى بالعبادة ولم يصرف شيئاً من العبادة لغيره ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فوقع في الشرك والكفر بالله

سبحانه وتعالى. قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

قال : ((**كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ أي :يوحّدونِ**)) ؛ معنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ الذي خلق جل وعلا الخلق لأجله أي : يوحدون . فالعبادة لا تكون عبادةً إلا بالتوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاةً إلا بالطهارة ؛ أرأيتم لو أن شخصاً صلى وأخبر عن نفسه بذلك قال "صليت بغير طهارة" ؛ يصح أن يُقال له : ما صليت ، لأن من شروط صحة الصلاة الطهارة ، فالصلاة بدون طهارة كأنها لم تكن ، ويُقال لمن صلى بدون طهارة : ما صليت . ومن عبَد الله بدون توحيد شأنه كذلك ؛ لم يعبد الله ، من عبد الله بغير توحيد هو في الحقيقة لم يعبد الله ، لأن عبادة الله لا تكون عبادة مقبولةً مشكورةً مرضية عند الله إلا بالتوحيد ، فإذا فقدت العبادة التوحيد فقدت أساس القبول ، ولهذا قال ربنا جل وعلا في الحديث القدسي : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) ، فالعبادة مع الشرك لا تكون عبادةً بل تُرد على صاحبها ولا تُقبل منه ، وإن مات على ذلك عاقبه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أشد العقاب وأحل به أشد النكال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] .

ولهذا وجب على كل إنسان أن يهتم بهذا الأمر وبمعرفته أشد الاهتمام ، لأنه أساسٌ عظيم وأصل متين خُلق لأجله وأوجد لتحقيقه ، وهو في الوقت نفسه ألذ شيء في هذه الحياة الدنيا ؛ ألذ شيء في هذه الحياة الدنيا التوحيد ، ومن عاش هذه الحياة الدنيا وخرج منها بدون التوحيد خرج منها ولم يذق ألذ شيء فيها ، ألذ شيء في هذه الحياة الدنيا توحيد الله ؛ فهو الحلاوة واللذة وقرة العين وهناءة العيش ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي موحد لله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] فبالتوحيد تكون الحياة الهنيئة والعيش الطيب والسعادة واللذة والراحة وقرة العين ، وبدونه تُفقد الخيرات في الدنيا والآخرة وتحل على الإنسان الشرور تلو الشرور . ولهذا ينبغي أن يكون اهتمام العبد بالتوحيد أشد الاهتمام ، وأن تكون عنايته به أعظم العناية ، أعظم من عنايته بطعامه وشرابه ولباسه وسائر شؤونه . قال : ((ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ : يوحّدونِ)) .

((**وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ**)) ؛ أي أعظم شيء أمر الله العباد به التوحيد . ويدل لذلك دلائل لا حصر لها وشواهد لا عد لها

- منها :أنه المقصود بالخلق ؛ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ .
- ومنها: أنه الغاية من بعثة الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

- ومنها: أنه أول أمرٍ في القرآن ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ .
- ومنها: أنه أول الأوامر في القرآن ؛ عندما تأتي آيات الأوامر والنواهي في القرآن تُبدأ بالأمر بالتوحيد .
- ومنها: أنه أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فإذا فُقد فقدت السعادة وفُقد الفلاح .
- وأنه أساس قبول الأعمال؛ فلا تقبل الأعمال إلا بالتوحيد، فإذا فقدت التوحيد رُدت على العامل ولم تُقبل منه.

إلى غير ذلك من الأمور الدالة على أن التوحيد هو أعظم شيء أمر الله سبحانه وتعالى عباده به . ومعنى هذا أن الله أمر عباده بأوامر كثيرة جاءت في الكتاب والسنة ، أعظم هذه الأوامر توحيد الله جل وعلا .

قال : ((**وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ سبحانه وتعالى به التوحيد**)) ما هو التوحيد الذي هو أعظم شيء أمر الله سبحانه وتعالى عباده به ؟ هذه الكلمة «التوحيد» مصدر للفعل وحَّد يُوحِّد ، وهو أصلٌ يدل على الإفراد ، التوحيد هو الإفراد ، ودين الإسلام سمي توحيداً: لأن مبناه على الإيمان بوحدانية الله ، والله جل وعلا من أسمائه الحسنى «الأحد»، ومن أسمائه الحسنى «الواحد» ، فدين الإسلام سمي توحيداً لأنه مبناه على الإيمان بوحدانية الله ، وحدانية الله في ماذا ؟ في ربوبيته جل وعلا وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته .

- في ربوبيته: بأن يُعتقد بأنه وحده سبحانه وتعالى الخالق المالك الرازق المنعم المتصرف لا شريك له .
- وحدانيته في أسمائه وصفاته : بأن تُثبت له الأسماء الحسنى والصفات العلا دون تعطيل أو تحريف ودون تكييف أو تمثيل ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].
- ووحدانيته في ألوهيته : بأن يُفرد جل وعلاوحده بالعبادة وأن يُخلص له الدين .

ولهذا قال العلماء : التوحيد أنواع ثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية . وكلٌ من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات مستلزم لتوحيد العبادة ؛ بمعنى أنَّ مَن عرف أن الله جل وعلا متفردٌ بالربوبية وآمن بأسمائه وصفاته لزمه أن يفرده بالعبادة ، ولهذا ترى آيات كثيرة في القرآن فيها الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة من خلال هذين الأمرين ؛ من خلال الإقرار بالربوبية ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢] ، ومن خلال الإيمان بالأسماء والصفات ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] ، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢] ؛ فيأتي في القرآن آيات كثيرة فيها الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة من خلال إلزام من أقرّ بالربوبية وأقر بالأسماء والصفات أن يفرده بالعبادة ؛ أي كما أنك تقر بأنه وحده تفرَّد بالخلق والرزق والإنعام لا شريك له ، وتقر بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا الدالة على كماله وجلاله وعظمته فأفرده وحده بالعبادة ، لا تجعل معه شريكاً في العبادة ، لا تدعو إلا هو ، ولا تسأل إلا هو ، ولا تذل إلا له ، ولا تخضع إلا له ولا تصرف شيئاً من العبادة إلا له جل وعلا ؛ كما أنه تفرد بالخلق والرزق والإنعام لا شريك له فيجب أن يُفرد جل وعلا وحده بالعبادة فلا يُجعل معه شريكاً فيها .

هنا قال رحمه الله : ((**التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة**)) فسَّر هنا توحيد الألوهية ، لأن توحيد الألوهية متضمن لنوعي التوحيد الآخرين –أعني الربوبية والأسماء والصفات– فتوحيد الألوهية متضمن للنوعين الآخرين ، أما النوعان الآخران فهما مستلزمان لتوحيد الألوهية كما سبق إيضاحه ، أما توحيد الألوهية فهو متضمن لهما بمعنى: أن من وحّد الله فتوحيده لله تبارك وتعالى فرعٌ عن إقراره بربوبيته وإيمانه بأسمائه وصفاته ، لأن عبوديته وذله له وخضوعه وانكساره له هو فرعٌ عن إقراره بأنه الرب الخالق الرازق ، وعن إقراره بأسمائه وصفاته.

وهذا هو الذي حصلت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم ؛ فالأنبياء لما قالوا للأقوام : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقعت الخصومة بينهم وبين الأقوام ، لأن الأمم كانت تقر –في الغالب الأعم– بأن الله هو الرب وأنه الخالق الرازق لكنهم جعلوا معه شركاء ووسطاء وأنداد بزعمهم تقربهم إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ، فاتخذوا مع الله الأنداد التي هي بزعمهم تقربهم إلى الله ، ويعتقدون في الأنداد أنها ليست خالقة ولا رازقة ولا مالكة ولا متصرفة ، بل يعتقدون فيها أن لها مكانة عند الله فتشفع لهم عند الله وتكون واسطة لهم عند الله ؛ولهذا قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ما قالوا : ما نعبدهم إلا لكونهم يخلقون ويرزقون ما قالوا ذلك ، بل يعتقدون أن الخالق الرازق المنعم المتصرف الله ، وجاء في القرآن آيات كثيرة تدل على هذا المعنى، وتدل على أن انحراف هؤلاء وزيغهم في اتخاذ الأنداد هو بجعل الأنداد شركاء لله في العبادة .

فإذاً هذا الأمر هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم ؛ لما قال النبي عليه الصلاة والسلام لقومه : ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) ماذا قالوا ؟ عرفوا المعنى وعرفوا المدلول وعرفوا المراد قالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} أي جعل المعبودات معبوداً واحداً ؟! لأن الإله معناه في اللغة: المعبود ، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} يعني جعل المعبودات التي تُقصد ويُلجأ إليها ويُطلب منها ويخضع لها واحدة؟{هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}أمر عجيب وغريب ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ثم أيضاً تواصوا بينهم أن لا يطيعوه في هذا الأمر العجاب بزعمهم ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦] يعني تواصوا بالصبر على اتخاذ الآلهة أنداداً وشركاء يعبدونها مع الله . وإذا قيل لهم : هل هذه الأنداد التي تتخذونها شركاء مع الله هل تخلق ؟ هل ترزق ؟ هل تملك ؟ ماذا يقولون ؟ لا . إذًا لم تعبدونها ؟ قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ .

ولهذا كانوا يلبون عندما يحجون البيت ويقولون في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ؛ يعني نحن لا نتخذ معك شريكاً إلا شريكاً هو لك تملكه ، ماذا يعنون ؟ يعني هذه الأصنام والأنداد التي يعبدونها هي لا تملك يقولون والله يملكها ، ولهذا يقولون في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ، ولهذا لما وصف جابر رضي الله عنه حجة النبي عليه الصلاة والسلام قال : «فأهلّ النبي صلى الله عليه وسلم بالتوحيد» ، أولئك كانوا يهلون بماذا ؟ كانوا يهلون بالتنديد فأهل نبينا عليه الصلاة والسلام بالتوحيد قال : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» أي كما أنك يا ربنا تفردت بالنعمة والملك والحمد لا شريك لك في ذلك فأنت تُفرد بالعبادة لا ند لك تُفرد بالطاعة لا ند لك؛ «لبيك اللهم لبيك» هذه كلمات توحيد وإخلاص لله تبارك وتعالى ؛ ولهذا ينبغي على كل حاج أن يردد هذه الكلمات في حجه كثيراً مستشعراً ما دلت عليه من التوحيد والإخلاص لله والبراءة من الشرك ، وهي دلت على التوحيد بنوعيه: العلمي والعملي ؛ العلمي : في قوله : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك» ، والعملي : في قوله : «إن الحمد والنعمة لك والملك» النعمة لك والملك لك : هذا توحيد علمي .

فالشاهد أن قول المصنف : ((**التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة**)) هذا تعريف توحيد الألوهية ، وهو متضمن لنوعي التوحيد الآخرين ؛ أعني توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

عرّف رحمه الله توحيد الألوهية بهذا التعريف المختصر الجامع قال : ((**إفرادُ اللهِ بالعبادة**)) ؛ إفراده ما معناها ؟ أي أن تكون العبادة له وحده ، هذا معنى إفراده: أن تكون العبادة له وحده لا يُجعل معه شريك فيها .

والعبادة عرفنا معناها ؛ الصلاة عبادة ، الصيام عبادة ، الدعاء عبادة ، الذبح عبادة ، النذر عبادة ، التوكل عبادة، الاستعانة عبادة ، هذه كلها عبادات ؛ فالتوحيد هو أن يُفرد الله بأنواع العبادات لا يُجعل معه شريك فيها ،يُفرد بالعبادة كلها ، الموحد هو الذي لا يدعو إلا الله ، ولا يستغيث إلا بالله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا ينذر إلا لله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يصرف شيئاً من العبادة إلا لله تبارك وتعالى وحده ؛ فمن نذر لغير الله أو ذبح لغير الله أو توكل على غير الله أو صرف شيئاً من العبادة لغير الله صار مشركاً وفارق بذلك التوحيد وخرج منه ولم يكن من أهله ، لأنه لا يكون من أهل التوحيد إلا إذا أفرد العبادة كلها لله ، لم يجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في شيء منها .

والشرك من أعفن الأشياء وأقبحها وأخسها ، وإذا دخل الشرك في العمل أفسده برمته ، أفسده كاملاً ؛ فمثلاً لو أن شخصاً أخلص في صلاته أخلص في صيامه أخلص في حجه ، أشرك في دعائه؛ شركه في الدعاء يفسد كل شيء ويدمر كل شيء ويخرب كل شيء ، فالشرك من أخس الأشياء وأعفنها وأخطرها ؛محبطٌ للأعمال كلها ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥] «عمل» مفرد مضاف فيعم كل عمل ، أي لحبطت أعمالك كلها وفسدت جميعها .

الشرك خطير جداً يحبط كل عمل ويفسد كل عمل ؛ ولهذا من لقي الله سبحانه وتعالى مشركاً به تبطل أعماله كلها وتذهب هباء وتضيع سدى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] ، ولهذا قال العلماء ناصحين : يجب على كل إنسان أن يكون خوفه من الشرك أشد الخوف ، وأن يكون دائماً حذراً خائفاً من الشرك أشد من خوفه من أي أمر آخر . مرّ النبي عليه الصلاة والسلام مرةً على الصحابة رضي الله عنهم وهم يتذاكرون فتنة المسيح الدجال التي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنها من أشد الفتن فقال لهم عليه الصلاة والسلام : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال؟)) قالوا : بلى يا رسول الله قال : ((الشرك الخفي)) أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال ، فتنة المسيح الدجال فتنة عظمى وبلية كبرى ، وخاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الشرك أشد من خوفه عليهم من فتنة المسيح الدجال التي هي من أشد الفتن وأعظمها .

إمام الحنفاء عليه صلوات الله وسلامه الذي حطم الأصنام بيده قال في دعائه : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦] كثيراً من الناس أضلتهم الأصنام ، أكثر الناس على غير التوحيد ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] أكثر الناس على غير التوحيد ، وآيات في القرآن تقرر هذا كثيراً ، ومن ذلك قوله : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] يؤمنون بالله رباً خالقاً رازقاً منعِماً لكنهم يشركون معه غيره في العبادة ، يجعلون معه الشركاء إما في الدعاء ؛ تجد أحدهم إذا مسه الضراء ونزل به البلاء وأصيب بالمرض واللأواء فزع إلى غير الله!! "مدد يا فلان ، أدركني يا فلان ، ألحقني يا فلان ، إن لم تدركني من الذي يدركني ؟ وإن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي ؟ أنا لائذ بجنابك، وأنا عائذ بأعتابك" ، وبعضهم يقول : "وأنا عبدك الكسير بين يديك" يناجي مخلوقاً مثله، سبحان الله ! أين عقول هؤلاء؟! أين عقولهم عن هذه الغاية التي خُلقوا لأجلها ؟! أين إيمانهم بالله ربهم جل وعلا الذي خلقهم وأوجدهم ، يلجأ إلى مخلوقٍ مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا عطاء ولا منعاً ولا خفضاً ثم يقول مستغيثاً به: "مدد ؟! أدركني ؟! الشفاء ؟! العافية ؟! إن لم تدركني من الذي يدركني" ، أين عقول هؤلاء ؟! أين عقول هؤلاء عن الغاية التي خلقهم الله سبحانه وتعالى وأوجدهم لأجلها ؟!

ثم قال رحمه الله : ((**وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ**)) ؛ والشرك أقسامه ثلاثة كما أن التوحيد أقسامه ثلاثة .
عرفنا أن التوحيد: توحيد الربوبية والأسماء والصفات والألوهية ، وكذلك الشرك أقسامه ثلاثة : شرك في الربوبية ، وشرك في الأسماء والصفات، وشرك في الألوهية .

وعرَّف هنا رحمه الله الشرك في الألوهية لأنه هو الذي فيه المعترك والخصومة ؛ قال : ((الشركُ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ)) هذا هو الشرك : دعوةُ غيرِهِ معهُ ، سئل نبينا عليه الصلاة والسلام أي الذنب أعظم ؟ قال : ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) هذا هو تعريف الشرك وهو أعظم الذنوب؛ أن تجعل لله نداً وهو خلقك. لو قال قائل : ما الشرك ؟ وقلت له هذه الكلمة التي قالها نبيك عليه الصلاة والسلام «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» ، ضم إليها الحديث الآخر : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله)) ، ما هو الإشراك بالله ؟ يفسره الحديث الآخر ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) . فالشرك : اتخاذ الأنداد ؛ أن يُجعل مع الله ند في حقوقه سبحانه ، والعبادة حق لله ((أتدري ما حق الله على العباد؟)) ثم قال : ((أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)) العبادة حق لله وحده سبحانه وتعالى . فهنا فسر رحمه الله الشرك بهذا قال : ((هو دعوة غير الله معه)) .

وأصل هذه الكلمة «الشرك»: التسوية . والمعنى هنا : تسوية غير الله بالله في شيء من حقوقه أو شيء من خصائصه ، ولهذا المشركون إذا دخلوا يوم القيامة نار جهنم ماذا يقولون ؟ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٩)إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٧٩-٨٠] هكذا يقول المشركون إذا دخلوا النار يوم القيامة ، يقولون : ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يحلفون بالله أنهم كانوا في ضلال ، ما الضلال الذي كانوا فيه ؟ قالوا : ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشرك: التسوية ؛ أن يسوى غير الله بالله في شيء من حقوق الله أو خصائصه سبحانه وتعالى .

والدعاء أعظم أنواع العبادة وأجلها ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((الدعاء هو العبادة)) وتلا قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] سمى الدعاء عبادةً ، فالدعاء أعظم أنواع العبادة وأجلها . فمن جعل مع الله شريكاً في الدعاء كأن يدعو ميتاً أو غائباً أو حجراً أو شجراً أو غير ذلك بأي حاجة أو مطلب مثل أن يقول : "مدد أو أن يقول : أدركني أو : أسألك الشفاء ، أو : ألحقني أو أنا مريض فعافني أو أنا ضال فاهدني" أو نحو ذلك فقد أشرك بالله العظيم ، قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣] وقال جل وعلا : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف:٥] وقال جل وعلا : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦] ، ويقول جل وعلا : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢] . والآيات التي فيها الأمر بإخلاص الدعاء لله تبارك وتعالى في

القرآن كثيرة ، وفي السنة النبوية كثيرة جداً ؛ الأمر بإخلاص الدعاء لله ؛ فلا يدعى إلا الله ولا يُسأل إلا الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما : ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) ، الأمر كله بيد الله ، قال جل وعلا لنبيه : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم مقرراً هذه الحقيقة: ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً)) ، وقال الله له في القرآن : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ أي على هدايتهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] ، حرص على هداية عمه ولم يهتد ، الهداية بيد الله، وأنزل الله قوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦] .

فالشفاء بيد الله ليس بيد أحد ، نبينا عليه الصلاة والسلام كان إذا طلب الشفاء لنفسه أو لغيره قال : ((اللهم رب الناس اذهب الباس)) ، وفي رواية ((اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)) ، فكيف بإنسان يذهب إلى قبر أو قبة أو ضريح يطلب من الميت أن يشفيه ؟! أو يطلب من الميت أن يعطيه ولداً ؟ أو يطلب من الميت أن يهديه ؟ هذا الميت لو كان حياً لم يملك لنفسه هو شفاءً ، ولم يملك لنفسه هو ولداً ، ولم يملك لنفسه هدايةً ؛ هذا كله بيد الله جل وعلا فكيف يطلب من غيره ؟! كيف يلتجأ فيه إلى غيره؟! يأتي أشخاص إلى قبور أو قباب أو أضرحة أو نحو ذلك ثم يقف أمامها منكسراً خاضعاً ذليلاً طامعاً راجياً باكياً "الحقني.. أدركني.. أعطني.. أريد كذا.. أريد كذا.. أريد كذا" يا سبحان الله ! لا إله إلا الله ، والله يقول : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] ، أين عقول هؤلاء عن التوحيد الذي خُلقوا لأجله والإخلاص الذي أوجدهم الله لتحقيقه؟ يذهبون هذه المذاهب وينحرفون هذه الانحرافات ويقعون في الشرك العظيم .

والشرك أظلم الظلم وأكبر الإثم ، وعرفنا ذلك في الحديث : ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى، قال : الإشراك بالله)) ، فالشرك أظلم الظلم على الإطلاق وأبطل الباطل ، وهو هضمٌ للربوبية وتنقص للألوهية وسوء ظن برب العالمين ، المشرك سيء الظن بربه وإلا لو كان حسن الظن بالله لما لجأ إلا إليه وحده، ولما دعا غيره ، فالمشرك سيء الظن ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] المشرك سيء الظن بالله ، لو كان حسن الظن بالله تبارك وتعالى لما لجأ إلا إلى الله ، ولما توكل إلا على الله ، ولما صرف ذله وانكساره وخضوعه إلا لله سبحانه وتعالى ؛ لأن هذا حقه سبحانه ، فالمشرك هضم ذلك كله ، وتلوث بهذا التلوث الذي هو أشر وأشد ما يكون ضرراً على الإنسان .

قال : ((**الشركُ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ**)) ؛ دعوةُ غيره أياً كان المدعو ، لأنا عرفنا أن العبادة حقٌ لله وحده ، فمقام الإنسان والشخص ومكانته عند الله ليست مسوغاً أن يُجعل شريكاً لله ، الشخص إذا كان له مكانة عند الله مكانته تحفظ ويُقر بها ويُعترف ، لكن مكانته عند الله ليست مسوغاً أن يُجعل شريكاً مع الله جل وعلا يُدعى ويُستغاث به ويُلتجأ إليه وتصرف له أنواع العبادة؛ لأن العبادة حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن يُجعل مع الله فيها شريك أياً كان ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما كما يأتي دليل ذلك في الآية التي ساقها المصنف وهي قول الله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ .

هذه الآية جمعت دلائل عديدة لما سبق ذكره عند المصنف ، وليكن حاضراً في ذهنك الأمور العديدة التي قررها : قرر رحمه الله أن التوحيد أعظم ما أمر الله به وأنه إفراد الله بالعبادة ، وأن الشرك أعظم شيء نهى الله عنه؛ وأنه دعوة غير الله معه . وهذا كله اجتمعت الدلالة عليه في هذه الآية الكريمة ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ؛ هذه الآية جاءت في سورة النساء ، وتُعرف عند بعض أهل العلم بآية الحقوق العشرة ، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر فيها عشرة حقوق، قال جل وعلا: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣٦] كم هذه ؟ عشرة ، عشرة حقوق ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بم بدأها ؟ بدأها بأعظم الحقوق وأهمها وأكبرها على الإطلاق وهو قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ .

ولهذا لما تتبع القرآن في آيات الأوامر والنواهي ويأتي في القرآن في مواضع عديدة ذكر الأوامر والنواهي متوالية في موضع واحد تجدها في جميع المواضع مبدوءة بماذا ؟ مبدوءة بهذا الأمر العظيم . مثلها تماماً قول الله سبحانه في سورة الإسراء قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٢-٢٣] ثم ذكر حق القرابة ونهى عن التبذير نهى عن الزنا نهى عن القتل ، نهى عن أشياء كثيرة لكنه صدر هذه الأوامر والنواهي بالنهي عن الشرك والأمر بالتوحيد . ومثلها أيضاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١] . أيضاً مثلها قول الله تعالى في صفات عباد الرحمن قال : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] . فترى هذا في آي القرآن عندما تُذكر الأوامر والنواهي تُبدأ بالأمر بالتوحيد الذي هو أعظم ، وبالنهي عن الشرك الذي هو أخطر النواهي .

وقوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ هذا أمر بالتوحيد ، ومر معنا قول ابن عباس رضي الله عنهما : «كل أمر بالعبادة في القرآن أمر بالتوحيد» ؛ فمعنى قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله ، أي أفردوا الله بالعبادة .

﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ ؛ وَلا تُشْرِكُوا : أي لا تسووا بالله غيره . الشرك : التسوية، والشرك : العدل ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١] أي يعدلون به غيره، يسوُّون به غيره .

﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ «شَيْئاً» جاءت في هذا السياق نكرةً ، والسياق سياق نهي فتفيد العموم {وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} أي أيَّ شيء . مثلها مثل ما مر معنا ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] أي أيُّ أحد كان لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما مما هو دونهما ، فالعبادة حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن يُجعل مع الله سبحانه وتعالى شريك فيها .

هذه المسألة التي تضمنتها هذه الرسالة العظيمة هي في بيان الحنيفية ملة إبراهيم ، وهذه المعاني والمضامين التي سمعتها -أيها الأخ الموفق بارك الله فيك- هذه المضامين لتكن منك دوماً حاضرة ، يومياً استذكرها ، يومياً راجعها، لا تفوت يوماً إلا وأنت تراجع هذه الحنيفية ، وليكن مراجعتك لها واستذكارك لها في الصباح الباكر في أذكار الصباح كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول في حديث عبد الرحمن بن أبزى في المسند وفي غيره بسند ثابت؛ قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال : «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» .

كل يوم في الصباح يصبِّح الإنسان ويبدأ يومه باستحضار الحنيفية ، التوحيد ، الفطرة ، الإخلاص لله تبارك وتعالى ويبدأ يومه في عهد مع الله بأن يمضي يومه بالتوحيد ، «أصبحنا» على ماذا ؟ على ماذا أصبحنا ؟ تجد بعض الناس – نسأل الله العافية والسلامة – يصبح على ماذا ؟ على التوجه للقبور ، على التوجه للأضرحة ، على التوجه هنا وهناك يسأل ويستغيث ويهيئ نفسه من الليل ليذهب إلى هنا وهناك ليسأل غير الله ويصرف العبادة لغيره ، فالمسلم الحق الموحد الصادق كل يوم يصبح على التوحيد ، على الفطرة ، على الإخلاص ، على الحنيفية ، على إفراد الله تبارك وتعالى وحده بالعبادة .

ولهذا يُحفظ هذا الدعاء وهذا الذكر المبارك ويردده المسلم يأتي به في الصباح الباكر كل يوم في جملة أذكار الصباح. «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» .

هذه إن شاء الله من الصباح غداً نواظب عليها جميعنا ، ولا تكون المواظبة عليها كلام يردد لا ندري ما هو ، وإنما نواظب عليها ونستحضر هذه المعاني العظيمة التي هي الحنيفية التي هي ملة إبراهيم .

وأقول يومٌ تشرق عليك شمسه وأنت صحيح معافى تصبّح ذلك اليوم بإعلان التوحيد والبقاء على الفطرة ، البقاء على الحنيفية ، على ملة أبينا إبراهيم ؛ يومٌ أنعم به يوم وأكرم ، يومٌ مبارك عليك ، تصبح وأنت تعلن هذا الإعلان وتردد هذا الكلام معلناً بقاءك ، في الناس وفي العالمين من غيّر ومن بَّدل تبديلاً ومن تلوث بأنواع من اللوثات ، وأنت يكرمك الله وينعم عليك وتصبح هذا الصباح الكريم ، تعلن في صباحك : «أصبحنا على فطرة الإسلام ، وعلى كلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» ، وتبدأ يومك من صباحه الباكر وأنت على هذه الفطرة وعلى هذا التوحيد وعلى هذا الدين القويم وعلى هذه الملة الحنيفية السمحة ، وتمضي يومك كذلك في عهد مع الله وفي أمن وأمان وحفظ من الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] ؛ أمنٌ واهتداء في الدنيا والآخرة .

بهذا انتهت الرسائل الثلاث التي جاءت في مقدمة الأصول الثلاثة ، والأصول الثلاثة الآتي عرضها يظهر – والله تعالى أعلم – أنها رسالة مستقلة مفردة وبعض طلاب الشيخ رحمه الله وتلاميذه وضع هذه الرسائل التي هي للشيخ نفسه رحمه الله بين يدي دراسة هذه الأصول الثلاثة؛ تتميماً للفائدة وإكمالاً للنفع وجمعاً لهذه المسائل العظام في موضع واحد ، وإلى مثل هذا المعنى أشار الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تعالى في تعليقه على الأصول الثلاثة حيث لما بدأ بشرحها قال : «وما تقدمها من المسائل – أي في الرسائل الثلاث – فلعل بعض تلاميذه قرنها بها» ، أي بعض تلاميذ الشيخ رحمه الله قرنها بها ؛ أي بالأصول الثلاثة ، وذلك تتميماً للفائدة وجمعاً لهذا الخير العظيم في موضع واحد ليعظم انتفاع طالب العلم بهذا المجموع المختصر الجامع النافع

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .